المناجاة العطائية

للأستاذ أبو الوفا التفتازانى

مدرس الفلسفة الإسلامية بكلية الآداب بجامعة القاهرة

لابن عطاء الله السكندرى مناجاة صوفية من روائع الأدب الصوفى ، وهى دعاء موجه إلى الله تعالى ، وأغلب الظن أن تكون قد ألفت مع الحكم لأن عبارتها متشابهة .

ويكفى أن نثبت هنا فقرات منها ليتبين لنا إلى أى حد كان ابن عطاء أديبا بارعاً يعبر عن أذواقه أجمل تعبير ، ويفصح عن مشاعره بأسلوب عذب يؤثر فى سامعه وينقل إليه تقواه وخشوعه .

يبدأ ابن عطاء الله هذه المناجاة بقوله : « إلهى أنا الفقير فى غناى ، فكيف لا أكون فقيراً فى فقرى ؟ إلهى أنا الجاهل فى علمى ، فكيف لا أكون جهولا فى جهلى ؟ إلهى إن اختلاف تدبيرك ، وسرعة حلول مقاديرك ، منعا عبادك العارفين بك عن السكون إلى عطاء واليأس منك فى بلاء ، إلهى منى ما يليق بلؤمى ، ومنك ما يليق بكرمك » .

ثم يمض فى مناجاته الجميلة معبراً عن أدق أذواقه وأروع أحواله فيقول عن معرفته بالله بطريق الذوق لا الاستدلال : « إلهى كيف يستدل عليك بما هو فى وجوده مفتقر إليك ؟ أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو لك المظهر ؟ متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ؟ ، ومتى بعدت حتى تكون الآثار هى التى توصل إليك ؟ » .

ثم تظهر قوته البلاغية حين يعبر بعبارات لا تزال تردد على الألسن إلى يومنا هذا ، فيقول : « إلهى هذا ذلى ظاهر بين يديك . وهذا حالى لا يخفى عليك ، منك أطلب الوصول إليك ، وبك استدل عليك ، فاهدنى بنورك إليك ، وأقمنى بصدق العبودية بين يديك » .

ثم يعبر عن إسقاط تدبيره مع الله واختياره بعبارات فيها خشوع الصوفى العابد فيقول . « إلهى اغننى بتدبيرك عن تدبيرى ، وباختيارك عن اختيارى ، وأوقفنى على مراكز اضطرارى . . . إلهى بك استنصر فانصرنى ، وعليك أتوكل فلا توكلنى

وإياك أسأل فلا تخيبني ، وفي فضلك أرغب فلا تحرمني ، ولجانبك أنتسب فلا تبعدني وببابك أقف فلا تطردني .

ويعبر بعد هذا عن معاني المعرفة والحب والأنس بالله ، فيقول في عبارات لم أر أقوى منها فيما قرأت للصوفية مخاطباً ربه : « أنت الذي أشرقت الأنوار في قلوب أوليائك حتى عرفوك ووحدوك ، وأنت الذي أزلت الأغيار من قلوب أحبابك حتى لم يحبوا سواك ولم يلجأوا إلى غيرك . أنت المؤنس لهم حيث أوحشتهم العوالم ، وأنت الذي هديتهم حتى استبانت لهم المعالم ، ماذا وجد من فقدك ، وما الذي فقد من وجدك ؟

وعلى هذه الوتيرة يمضي إلى نهاية مناجاته معبراً عن أحواله الصوفية تعبيراً صادقا في عذوبة ورقة لهما وقع أي وقع في قلوب المتعبدين من السالكين إلى الله .

وقد كان ولا يزال لهذه المناجاة عند الصوفية من الشاذلية منزلة رفيعة ، وهي عندهم مما يتعبدون ويتناجون به في وقت السحر .